ساعة مع الحاج أمين

للأديب صبحي ابراهيم الصالح

في اليوم العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٦٥ (الخامس من نوفمبر سنة ١٩٤٦) كنت من فرحى في عيدين : عيد الأضحى المبارك ، وعيد مقابلتي لسماحة المفتي الأكبر !

كانت المقابلة في ساعة الأصيل ، وكنت أقول بيني وبين نفسي :

« يا ليتني أستطيع أن أجلس إليه وحدي ، أو ليت زملائي الطلاب الفلسطينيين الأزهريين — الذين قدمت معهم لزيارة سماحته — يدخلون مَوْحَد موحد ، ليتيسر لي أن أنفرد معه فأفضي إليه بكل ما في قلبي ، هذا القلب الذي لم ينطو لحظة إلا على حب العروبة والرغبة في الدفاع عن كل شبر من أراضيها ، والحماسة في كره خصومها .

* * *

وأذنوا لنا بالمقابلة ، فخفق قلبي — ونحن نَجوزُ الحديقة في طريقنا إلى قاعة الاستقبال — فأدركت أني سأقابل عظيما ، لأني ما عهدت قلبي يخفق لمقابلة إنسان ، مثل ذلك الخفقان .

ولم يكن بين زملائي من هو أصغر مني سناً ، فتركتهم يتقدمونني ويسلمون على سماحة المفتي ثم يجلس كل واحد منهم حيث ينتهي به المجلس . حتى إذا جاء دوري انحنيت محاولا لثم اليد الطاهرة ، فسحبها بلطف . ونظرت حولي فلم أجد إلا مقعداً خالياً عن يمين مقعد سماحته قد تهيب الجميع الجلوس عليه ، فتهيبت مثلهم لولا أن المفتي أشار إليه بنفسه ، وقال بصوت يسيل رقة وعذوبة :

— « اجلس هنا ... أهلا وسهلا بكم جميعاً » .

ولا تسَل عن سروري بهذه الجلسة المجاورة التي مكنتني من إطالة النظر إلى ذلك الرجل الربعة القامة ، المعتدل الهامة ، الصبوح الوجه ، المتلألىء الجبين ، ذي العينين الزرقاوين البراقتين اللتين ما وقع بصري على أصفى منهما ، ولا أصرح منهما ، ولا أشد تعبيراً منهما ، والأنف المستقيم ، والشفتين المنفرجتين عن ابتسامة مشرقة ، واللحية الكستنائية التي وخطها المشيب فأضفى عليها مهابة على مهابة ، ثم زاده في نظري جمالا — وما فيه إلا جميل — تلك العمة على رأسه كأنها تاج — وإنها لأكرم من التيجان — وهذه الجبة تكسو بدنه كأنها لباس الملوك — — وإنها لأعز من لباسهم — فتمثل لي كل ما فيه أصدق صورة للرجل العربي الفخور بزيه ، المعتز به .

* * *

وكنت أتفاسى لألتقط الكلمة الأولى التي كنت أرجو أن تطرب لها أذني ذلك اليوم كله — بل عمري كله — وكنت أنتظر أن يجلجل في القاعة صوت جَهْوَري رنان ، فإذا بي أنصت لصوت خافت كأنه الوسوسة ، وحديث هادىء موزون لا تخرج من بين شفتي سماحته كلمة من كلماته إلا بعد أن يتأكد أنه لا يعطي ما يريد من معناها إلا هيْنَهْ ، مستعيناً على إيضاح فكرته بحركات من يد محكمة ، وإشارات ناعمة : فعلمت أن سماحته يؤثر أن يكون هادىء الحديث ، خافت الصوت ، قليل الحركات بحكمة الرجل الرشيد ، على أن يكون وَحِيَّ الحديث ، جهير الصوت ، كثير الحركات ، بتهور لا يغني ، وحماسة لا تفيد .

تساءل سماحته عن كل فرد منا ، وعن الكلية التي ينتسب إليها ، والسنة التي أصبح فيها ، والعلوم التي ندرسها ، ثم أحب أن يتعرض لقلة المدارس العربية في فلسطين ، وأن يستنهض الهمم إلى المطالبة بجعل المعارف في أيدي العرب فقال :

— « إن قلة مدارسنا العالية من ويلات الاستعمار ولعناته ، فما يريد لنا خصومنا أن نحيا أحراراً كما يحيا الناس ، وأن نكون متعلمين كما يتعلمون ، وأن نكون متسلحين كما يتسلحون .

« كنا في بلادنا نُرحَّاناً قليلا ما يصيبنا داء ، أسماء نادراً ما يدهمنا وباء : فإذا اعتللنا عرفنا كيف نتناول بأنفسنا الدواء .. ثم ما أصابنا الداء إلا من جراثيم اليهود ، ولا دهمنا الوباء إلا من عدوى الانكليز ، ولا عافت أنفسنا الدواء إلا لأنهم أرادوا أن

يَدُقوه بأيديهم وقد كنا ما نزال لا نقبل من الدواء إلا ما كان مدوفاً بأيدينا ؛ لأن مناعتنا أبداً بحِمْيتنا ، ولأن قوتنا في كل حين بالاستغناء عن الآخرين » .

ولعلك تحسب أن سماحة المفتى الأكبر كان — وهو يلقى هذه الكلمات التي أشعلت صدورنا ناراً — يعمد إلى الخطابة والبيان ، فيرتفع صوته ، ويبدو الانفعال عليه . كلا ... وإنما كان يتحدث هذا الحديث الخطير ، بصوت أنعم من الحرير ، حتى أصبحت أومن بأن الإنسان العظيم يستطيع في آن أن يكون في رشاقة الغزال وقوة الأسد الهصور .

ورأيت إلى يدى سماحته فإذا هما كحرير الورد ، وأخذت أطيل إليه النظر من جديد لأرى أين تكمن تلك القوة الهائلة التي جعلته يَلقَى العقبات الكاداء فيذللها ، وتعترضه الصِّعاب فيقتحمها ، فقاد الثورة الفلسطينية ، وهاجر إلى لبنان ثم إلى العراق ثم إلى إيران ثم إلى ألمانيا ثم إلى فرنسا ثم لجأ إلى مصر بلد الفاروق ... ألا كيف تكمن القوة في طى الوداعة ، وأنى تختبىء الشدة وراء السالة ؟ حقاً إنها قوة الروح ! وما أدراك ما قوة الروح !

***

وكأنما استفزت كلمات الحاج أمين أكبرَ زملائى الفلسطينيين سناً ، فالقى كلمة كان يهتز معها جسده تأثراً ، وتقشعر جلودنا لسماعها حاسةً ، فكان مما قاله :

— « يا سماحة المفتى الأكبر ! إن قلوب المتعصبين اليهيسة ، تريد أن تُبقى أفكارنا حبيسة ! لكن لنا أرواحاً لن يمنعها من الوثوب ، توالى المصائب والخطوب . فسماحتكم رمزنا الذى نلتف حوله ، ونعتصم به ؛ وإنا لنتضرع إلى الله أن يعيدك إلى وطنك مظفراً منصوراً ، لتدخله دخول الفاتحين ، فتجمع الكلمة ، وتضم الشتات ، وتسوى الصفوف ؛ ويومئذ لا تذر على أرض فلسطين من الصهاينة ديارا : فليعيشوا إن شاءوا في دوية مهلكة أو مدائن عامرة ، وفي مفازة موحشة أو في ناطحات السحاب ، فلن نسمح لهم بالتوهين والكيد فيما بيننا ونحن ساهرون ، ولا بالتفريد والخداع ونحن أيقاظ مفتحو العيون .

عد إلى موطنك فلسطين — يا سماحة المفتى الأكبر — ولا تخشَ في الله لومة اللائمين » .

فقال سماحته على الفور :

— « حاش لله — يا أبنائى — أن أعتبر فلسطين وحدها موطناً لى ، فإن الوطن العربى قطعة واحدة ، وما من بلد ينطق أهله بالضاد إلا وهو موطنى ، وموطن كل عربى .

ألا وإن الدول الكبرى التى تستطيع أن تستغنى — لو ارادت بثرواتها وقواها ، واستعداداتها ومواردها — قد أدركت فائدة التعاون ، فانضم بعضها إلى بعض ، وخطب بعضها ود بعض ، وحالف بعضها بعضاً ؛ ألا وأننا أشد منهم حاجة إلى التعاون ، وأقرب منهم سبيلا إلى التفاهم : لأن شعورنا واحد ، وآلامنا واحدة ، وآمالنا واحدة .

وإن العروبة — لتعلق عليكم — يا شبابها الأبرار — أملا كبيراً في أن تعملوا أنتم في الحقل الدراسى وفى الحقل الاجتماعى على توحيد الصفوف ، وتكتيل القوى ، حتى لا يمر عربى بفلسطين فيبكى دماً حين يرى المزرعة الفسيحة ليس عليها بناء ولا فيها شجر فيؤكدون له أنها ليست ملك اليهود ، ويرى المستعمرة المنظمة عليها البناء وفيها الشجر فيؤكدون له أنها من صنع اليهود .

تخصصوا جيداً في شئون دراستكم ، فإن العلم أقوى سلاح في هذا العالم بعد الإيمان بالعقيدة والوثوق بسمو الفكرة » .

***

ولاحظنا بعض الزائرين يريدون الدخول ، فرأينا أن نقنع بسماع هذه النصائح القيمة ، فقام أكبرنا سناً فقمنا ، ودنا من سماحة المفتى فدنونا ، واستأذن بالانصراف فاستأذن الجميع ، فقام الحاج أمين — من لطفه — يودعنا إلى الباب ، ويصافح كلا منا وهو يدعو لنا بالتوفيق .

لقد خرجت من حضرته — وان صورته ماثلة في عيني وفي أعماق قلبي — شاعراً بأني أريد أن أعمل على خدمة بلادى بفؤاد مخلص إخلاص فؤاده ، وبضمير نقى نقاء ضميره .

(طرابلس الشام)

صبحى ابراهيم الصالح
خريج كلية أصول الدين بالأزهر